

الكلام وطريقاً واضحاً لإخوانه من أبناء دينه كما يفهم ذلك من ميامره ومن كتابه الذي ألفه في الرد على المسلمين .

وعريب أمر أولئك الذين يتصورون بأن المسلمين الأولين كانوا كالحجارة الصم لا يحسنون سؤالاً ولا يدرون جواباً . وفي القرآن الكريم والحديث الشريف والسير والغازي والأخبار أسئلة وأجوبة مختلفة في مسائل الكون والعالم والبعث ويوم الدين والأفعال والأعمال والخطير من الدنيا والآخر . وهم إن شكوا في كل شيء ، فلن يستطيعوا الشك في صحة القرآن وفي صحة روايته كما كان ينطق به الرسول . والقرآن وحده كفيلاً وخيراً شاهد على صحة ما نقوله .

ولا عبرة ببعض ما ورد في بعض الكتب مثل ما جاء في « كثر المال » من أن القديسين سموا بهذا الإيم لأنهم « اشتقوا قولهم من النصرى » أو عبارة « اشتقوا قولهم من قول النصرى »^(١) إذ ورد في الأخبار « القديرية محوس هذه الأمة »^(٢) .

ولو ذهبنا مذهب بعض المستشرقين - ومذهب أهل الرأي والقياس لوجب علينا أن نقول بأن القديرية أخذت قولها هذا من المجوس ، وهو قول يناقض المعروف ؛ إذ المعروف بأن المجوس كانوا يقولون بالجبر لا بالاستطاعة والاختيار .

الحق أن ما ذكره يوحنا وما بنى عليه بعض المستشرقين هو من قبيل « الأفكار العامة » التي تخطر على كل بال ، من قبيل تلك الأفكار التي تردت على عقول البشرية منذ أول يوم هبوطها على سطح الأرض حتى اليوم . إنها من قبيل الأفكار العامة التي عالجها أدمغة الوثنيين كما عالجتها أدمغة أصحاب الأديان بل وحتى الشعوب الابتدائية والتبائلي البدوية ، وما كان ظهور مثل هذه الأفكار في الإسلام بمحدث غريب وقد عالج الإسلام أموراً أعقد من المواضيع التي نتحدث الآن فيها بكثير .

ولنمد الآن إلى الموضوع . ظهرت في الإمبراطورية البيزنطية المسيحية وفي ردهات المسيحية فكرة غريبة هي فكرة « تحريم الصور » (Ikonoklasten) وقد انتشرت هذه الفكرة بسرعة كبيرة في سوريا وفي مصر وفلسطين . فتحطمت الصلبان وأحرقت

يوحنا الدمشقي

JOHANNES DAMASCENUS

للدكتور جواد علي

تمة

—>>><<<—

ومن آراء هذا القديس أن النبي الكريم كان قد تلقى تعاليمه من أحد أتباع « آريانوس » " Arius " " Arianers " (التونسي سنة ٣٣٦ للميلاد) والذي كان قد أكرأه الميعة المسيح فخرمه مجمع نيقييا " Nikäa " الذي انعقد في عام ٢٥٣ للميلاد ، ثم أكد هذا التحريم للمجمع (Synod) الثاني الذي انعقد في القسطنطينية . وكان من أشد خصومه (أثناسيوس) Athanasius رئيس أساقفة الاسكندرية القائل على العكس بألوهية المسيح^(١) . وهو قول ردد صداه المستشرقون فيما بعد : وقد فاتهم بأن البدعة « الأريوسية » أو « الآريانية » لم تكن معروفة في البلاد العربية ، فلا يمكن أن يكون الرسول قد تعرف إلى أحد من أتباع هذه الشيعة . وقد فاتهم أيضاً بأن النسبة إلى « الأريوسية » كانت شائعة بين الفرق النصرانية ، فكانت كل شيعة من الشيع النصرانية تنسب الشيعة المعارضة لها إلى هذا الإسكندري الذي حرّمته مجامع المسيحيين . وقد سلك يوحنا في مواضع من ميامره مع « النوفيسيتين » والمعارضين الآخرين نفس هذا السلوك ، ونسبة دواسة النبي على أحد « الأريانيين » — وهو قول واه لا تؤيده الشواهد التاريخية — هو من هذا القبيل^(٢) .

وخلاصة ما يمكن أن يقال ، هو أن يوحنا كان قد خاف على دينه من الزوال ، وهو رجل دين وصاحب عقيدة ، وأنه وهو في بلاط خليفة دينه يخالف دينه عرضة للنقاش في الدين وهدف للجدال كما كان يحدث ذلك دوماً لكل ذي يتولى مركزاً سامياً في قصور أمراء المسلمين . وقد ساء ما رآه من دخول أبناء دينه أفواجا أفواجا في الإسلام ، فأراد أن يضع لهم منهجاً ثابتاً في

(١) راجع كثر المال ج ١ ص ٣٦ نغرة ١٦٨ و ٦٥٢ ، كذلك Islam Studies. Part 1, p. 441.

(٢) راجع مختصر كتاب الفرق بين الفرق وهو حديث من ١٦

(١) راجع عنه Leary, Arabic Thought and its Place in History p. 27, London 1939.

(٢) Islam Studies. Part 1, pp. 433, M, 94, 765

لفظة «تصاليب» بدلا من «تصاوير»، قال القسطلاني: «تصاليب أى تصاوير كصليب النصارى»^(١). وهذا ما يجعل للمشكلة صلة بالمشكلة التي أثارها «الامبراطور ليو» في الامبراطورية البيزنطية. وبلاحظ أيضاً بأن يوحنا لم يتحامل في رسائله التي ألّفها للدفاع عن الصليب والتصوير عن المسلمين كتحماله على اليهود. على عكس ثيودور أبوقرة أحد تلاميذه الذين احتدوا حذوه وتهيجوا منبهجه، فلقد تحامل هذا على المسلمين تحاملاً شديداً وعنفهم تنقيفاً مرأاً لأنهم كانوا سبب هذا التحريم^(٢). لم تنفع هذه الحملة الصليبية التي أثارها هذا الموظف المسيحي في بلاط أمير المؤمنين في الشام شيئاً. قد يكون يوحنا نجح بعض الشيء في إثارة جذوة نار تلك المشاكل الكلامية التي ظهرت قبله بزمن وفي صلبها في جداله مع المسلمين بقالب منطقي يوناني أثر على أسلوب الكلام عند المسلمين، ولكنه فشل في الحيلولة بين المسيحيين السوريين وبين الاسلام وآثر يوحنا وهو في أواخر حياته الاعتزال في دير من أديرة الدنيا النائية ليوجه تفكيره نحو خالقه، فاختار دير «القدوس سابا» (St Sabas) قرب القدس ليكون عمله المختار^(٣). وقد ظل في هذا الدير إلى أن جاءه أجله المحتوم بين عامي ٧٤٨ و ٧٥١ للميلاد على أكثر الروايات^(٤).

هوار على

التصاوير، ونادى الناس حتى في الإمبراطورية البيزنطية بأن الصور والصلبان والزخرفة رجس من عمل الوثنية والشيطان^(١). وشاعت أسطورة ذكرها ثيوفانس (Theophanes) خلاصتها أن أحد اليهود، وكان يكره النصارى، تمكن من إقناع الخليفة يزيد الثاني بضرورة تحطيم الصلبان وتمزيق التصاوير كي يطول عمر الخليفة^(٢). فأصدر الخليفة أمره في الحال بوجوب تحطيم كل ما هو موجود من صلبان النصارى. ويدكرون أيضاً بأن إمبراطور القسطنطينية، وهو الإمبراطور «ليو» تأثر بعد ذلك بأفكار أحد السريان، وكان قد وقع في أسر المسلمين، فاعتنق الإسلام وسمى نفسه «بشراً» «بسر» Beser وغدا من أعداء الصلبان والتصاوير، وكان ذلك في عام (٧٢٦) للميلاد^(٣).

عندئذ أصدر الإمبراطور أمره في عام ٧٢٦ للميلاد بتحريم الصلبان والتصاوير. وقد نفذ الأمر الإمبراطوري الرسمي في كافة أنحاء الامبراطورية البيزنطية، وتبرم صاحبنا يوحنا من هذا الأمر الملكي الرسمي واعترض عليه بست رسائل ألّفها تنقيداً لهذا الأمر ولئن قال بهذه البدعة من أتباع الملوك.

وفي هذا التحريم أصل إسلامي ملموس وإجابة للدعوة النبي الكريم، تلك الدعوة التي حققها يوم أمر بتحطيم أصنام الكعبة وأصنام الطوائف وكل صنم آخر قائم. ذلك ما قاله نفر من المستشرقين^(٤). على أن هنالك جماعة أخرى رأيت غير هذا الرأي؛ رأيت أن هذا التحريم مصدره تلك الفكرة اليهودية التي كانت قد حرمت تصوير مخلوقات الحيّة وقاومت التصوير مقاومة عنيفة. وقد انتقلت هذه الفكرة إلى المسلمين وانتقلت على زعمهم من المسلمين إلى المسيحيين^(٥).

وتطرف هؤلاء فقالوا بأن الأحاديث التي رويت عن لسان الرسول، والتي حرمت التصوير، إنما ظهرت في هذا المهد الذي أعلنت الحكومة البيزنطية فيه أمرها بتحطيم الصلبان.

ورد في الحديث: من صور صورة في الدنيا كلف أن يتفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ^(٦). واستعمل بعض المحدثين

(١) راجع هذه المادة في دائرة المعارف البريطانية وفي دائرة المعارف القبطية

(٢) راجع Théophanes Edition de Boor 401 29.

(٣) راجع Michel le Syriac, Livre, XI p, 503

(٤) Islam Studies part I p, 446.

(٥) Levetts, History of the Patriachs of the Coptic 3, 72

(٦) كنز العمال ج ٢ ص ٢٠٠ القسطلاني ٨ ص ٤٨١ الزرقاني

على الموطأ ٤٠، ٢٠٤.

(١) القسطلاني ج ٨ ص ٤٨١.
(٢) ثيودور أبوقرة "Theodore Abucara" أو ناودروس أبوقرة (وروي أيضاً أبو قارة). أسقف حران (٧٠٠ - ٨٢٠ للميلاد) من أعظم الكعبة الكنعانيين وأبرعهم في المصنعات الجلدية والأبحاث الدينية. وعمر أبوقرة في عهد الأمون راجع عنه كتاب المخطوطات العربية لكعبة النصارية للأب لويس شيخو اليسوعي بيروت ١٩٠٤، أيضاً المشرق سنة ٣ - ١٩٠٣، كذلك مياسر، وقد طبعها الخوري قسطنطين الباشا أحد رهبان دير الخلدس. مطبعة الفوائد لصاحبها خليل البدوي في بيروت.
أيضاً النصف البريطاني رقم Or. 4240 كذلك R. A. Nicholson A literary History of the Arabs p, 221 Cambridge. 1931
وجاء في ضحى الاسلام ج ١ ص ٣٤٤ - ٣٤٤ طبعة أولى «أبو كارا» كما جاء في الأحرف اللاتينية والصواب «أبو قرة» أو «أبو قارة». كما جاء ذلك في مياسر نفسها. راجع كتاب مياسر ناودروس أبو قرة.
(٣) راجع Hitti, History of the Arabs, p, 246 3, Edition 1943.

(٤) يقول Qailhe إنه توفي في ٤ ديسمبر من عام ٧٤٩ للميلاد. أما كتاب فيليب حتى غوالي عام ٧٤٨ وأما كراف Graf الذي كتبته وأخرج مخطوته فبني أن حياته كانت بين عامي ٧٤٠ - ٨٢٠ للميلاد، أي بين عامي (١٢٤٣ و ٢٠٠٥ "مجرة") راجع Islam Studies 1, p, 434 Migne Patrologia Graec
وجاء في حاشية ص ٢٤٨ من الجزء الأول من تراث الاسلام الترجمة العربية (١٩٢٦) وكان (أى يحيى أو يوحنا) مولد الأمون وهو خطأ لا أدري من أين جاء به معرب الكتاب. فأغلب الظن أنه لم يدرك ما قبل عهد خلافة الأمون.